مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم:03، سبتمبر 2026، صص: 07- 24
تاريخ الاستلام (2025 /11/17) تاريخ القبول (2026/09/19) تاريخ النشر (2026/09/30)

أدبية السرد القصصي في القرآن و أبعادها الحجاجية دراسة في نماذج من قصتي آدم ونوح عليهما السلام

The Literary Artistry of Qur'anic Narratives and their Argumentative Dimensions: A Study of Selected Examples from Adam's and Noah's Stories (Peace Be Upon Them)

شريفة بلحاج [1] كراش بن خولة [2]

[1] جامعة بن خلدون /تيارت(الجزائر)، cherifa.belhadj@univ-tiaret.dz

[2] جامعة ابن خلدون/تيارت(الجزائر)، Karachebenkhawla@gmail.com

ملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية بيان تجليات أدبية السرد ومقوماته في نماذج من القصص القرآني مبينا خصائصها الفنية وسماتها الأدبية مركزا على بيان الوظائف الحجاجية التأثيرية لهذا السرد القصصي من خلال قصتين تتكرران كثيرا في القرآن وهما قصتا آدم ونوح عليهما السلام، بأسلوب معجز فريد، من أجل إقناع المتلقي بحقائق القرآن الأساسية وهي الإيمان بالله وحده ونبذ الشرك وعبادة الأصنام، مبينين في أعقاب ذلك كيف رعى السرد القرآني المقام التنزيلي لعرض هاتين القصتين وغيرهما، وكيف يتناسق السرد القصصي مع المقام مراعيا مفصل البلاغة الذي يطابق الكلام لمقتضى الحال.

كلمات مفتاحية: الأدبية، السرد، القصص القرآني، الحجاج، قصة آدم، قصة نوح

Summary:

This research paper seeks to explore the manifestations of narrative literariness and its constituent elements in selected examples of Qur'anic narratives, highlighting their artistic characteristics and literary features. It focuses particularly on the persuasive and argumentative functions of narrative discourse through two stories frequently recounted in the Qur'an:

المؤلف المرسل: شريفة بلحاج، **الإيميل:** cherifa.belhadj@univ-tiaret.d

the stories of Adam and Noah (peace be upon them). These narratives employ a uniquely inimitable style to convince the recipient of the fundamental truths of the Qur’an, namely, belief in God alone and the rejection of polytheism and idol worship. The paper further examines how Qur’anic narration takes into account the circumstances of revelation when presenting these two stories and others, and how narrative discourse harmonizes with its communicative context, adhering to the rhetorical principle of adapting speech to the requirements of the situation.
Keywords: Literariness; Narration; Qur’anic Narratives; Argumentation; Adam’s story; Noah’s story

1. مقدمة :

يعد السَّرْد القرآني إذا نظرنا إليه من منظور تداولي حجاجي جُملة من الأفعال الكلامية المعجزة التي تهدف لمجموعة من المقاصد الدعوية والتوجيهية والتربوية المتّسقة مع الدور الرئيسي للقرآن الكريم بوصفه كتاب هداية وإرشاد، والمقصد التعليمي والتربوي ملتصقٌ بالسرد عمومًا -أيًّا كان ما يريد المؤلّف أن نتعلمه- لكن هذا المقصد في السرد القرآني أكثر التصاقًا وأكثر جلاءً، فالمقاصد العقدية هي الحاكمة لكلّ أشكال الخطاب التعبيرية في القرآن بما فيها السرد.

وقد تميّز السرد في القرآن بالتعالي والسعة والتداخل والحرية المطلقة في تداخل القصص، وتدخل الماضي والحاضر والمستقبل في زمن واحد، فيما أُطلق عليه الأبعاد الإلهية الخاصّة للزمان والمكان، فالسرد في القرآن وظيفي سياقي بامتياز، ولا يُعنى بأمر التسلسل المنطقي أو فكرة الحبكة في الأغلب الأعمّ؛ لأنّ مقاصده العقدية هي الحاكمة لمختلف عناصر السرد، وكثيرًا ما نجده يقطع السرد ليقوم بالالتفات الزمني نحو حاضر التنزيل، ويوجّه خطابه إلى الرسول الكريم منبهًا إياه، حيث يوظف السرد القصصي الخاص بالمستقبل تارة ويوظف السرد الخاص بالماضي تحسب ما تقتضيه الحجاج القرآني طوال التنزيل القرآني حسب المقام.

فكيف يوظف السرد القرئاني خصوصياته الزمنية والسردية في بناء الحجاج وتحقيق المقاصد التداولية؟ والى اي مدى يسهم الانتقال بين مستويات الخطاب في توجيه المتلق

1-مفهوم الأدبية

ينضوي مفهوم الأدبية على صعوبة مفاهيمية تصل إلى حد الغموض أحياننا، ورغم ذلك سنحاول الإمساك بهذا المفهوم من خلال بيان مفهومه لغة واصطلاحا وعلاقته بالسرد حتى يتضح أكثر وتتبين معالمه.

1-1-الأدبية لغة :

جاء في لسان العرب: «الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبا لأنه يؤدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، والأدب الظرف وحسن التناول، وأدّبه فتأدب: علّمه؛ فالأدب أدب النفس والدرس»[1].

1-2-الأدب اصطلاحا : هو جملة ما ينبغي لدى الصناعة أو الفن أن يتمسك به كأدب القاضي وأدب الكاتب، و(الأدب): الجميل من النظم أو النثر، وهو كل ما أنتجه العقل الإنساني من ضروب المعرفة، و(الأدبي): المنسوب إلى الادب؛ يقال قيمة أدبية: تقدير معنوي غير مادي، ومنه مركز أدبي وكسب أدبي[2].

أما لفظ الأدبية فينطوي على مفهوم يزيد على المفهوم اللغوي والاصطلاحي إلى مفاهيم أكثر تجريدا إذ تدل ياء النسبة(اللاحقة) على معنى مجرد، هو مجموع الصفات التي يتصف بها الأدب وتشكل جوهره الأدبي، وهذا المفهوم المضاف إلى مفهوم الأدب كما بيناه أنفا لم يعرف إلا في العصر الحديث مع تطور الدراسات اللسانية والأسلوبية ولاسيما النقدية والشعرية إذ سيوظّف «النقد الأدبي الحديث هذه الآلية التوليدية في غرضين متوازيين: إبراز السمة التمييزية من جهة، وتكريس الهوية من جهة ثانية، وهو ما سيجعل هذه اللاحقة الاشتقاقية(ياء النسبة مع تاء التأنيث) زائدة تخصيصية حينا وزائدة معرفية حينا آخر»[3]

فنعت العمل المنثور أو المنظوم بأنه أدبي يقتضي توفره على صفات ملموسة تسوغ للدراس نعته بالأدبية أي كونه أدبا حقا[4] وهذه الميزة تتعلق بصفة الجمالية لأنها تخص من الأعمال تلك «التي تغلب عليها الوظيفة الجمالية»[5] لذلك كانت الأدبية وليدة النقد الأدبي الحديث وتجولت معه الأدبية من مفهوم خام إلى مفهوم جمالي ومعرفي له أسسه النظرية ومنهجه النقدي وإجراءاته التطبيقية فيما صار يعرف بعلم الأدب، ويطبق على النصوص الرفيعة التي تحتل درجة مرموقة من البعد الجمالي على مستوى المضمون والأسلوب معا.

2-مفهوم السرد

على غرار مفهوم الأدبية ينطوي مفهوم السرد على درجة كبيرة من المفاهيم المتداخلة وإن كان أقل منه من جهة الغموض من جهة ومن جهة المعرفة التاريخية من جهة أخرى إذ السرد أكثر أيغالا في التاريخ وإن تطورت مبادئه وأسسه النظرية والإجرائية حديثا فيما صار يعرف بالسرديات ومن هنا نجد علاقة وطيدة بين الأدبية والسرد وإن كان العلاقة بينهما ذات عموما وخصوص إذ الأدب كموضوع يتضمن السرد والسرد كجنس يتضمن الأدبية.

2-1-السرد لغة:

يقصد بالسرد في اللغة حسب ابن منظور «تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في أثر بعض متتابعا»[6] ويضيف ابن منظور متحدثا عن السرد إذا كان مقصودا به الحديث والكلام خاصة «سرد الحديث يسرد إذا كان تابعه «ثم يضيف ابن منظور خصيصة أخرى من خصائص السرد في الحديث خاصة تتعلق بالإجادة والتفنن فيه حيث يقول: «وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له»[7].

فالسرد من ناحية الدلالية المعجمية يدور حول الاتساق المنتظم المرتب عامة، أما في الكلام فإن ابن منظور يضيف له قيدين هما قيد الترتيب والتتالي من جهة، وقيد البراعة في هذه المتابعة من جهة أخرى، وبالتالي يرتقي بالسرد من مجرد الوضع وضعا متسقا إلى معنى المتابعة الجيدة في الكلام، ثم إجادته والبراعة فيه، وهذان القيدان قد خصصا معنى السرد المعجمي العام إلى سرد خاص في الكلام، ما يعني ارتقاء الدلالة المعجمية من التعميم إلى التخصيص حيث انتقلت الدلالة المعجمية للسرد من المتابعة في الأشياء عامة، إلى المتابعة في الحديث خاصة، إلى البراعة في متابعة الحديث على الخصوص.

2-1-السرد اصطلاحا:

أضحى السرد منذ النصف الثاني من القرن العشرين مدار علم قائم بذاته، متفرد بمفاهيمه، له مقوماته النظرية والمنهجية والإجرائية، كما اصطلح عليه بـ«السردية» أو «علم السرد»، وأضحت الأبحاث فيه تتعمق يوما بعد يوم منذ دراسة باختين إلى غريماس وجيرار جينيت وغيرهم، من أجل الوقوف على مبادئه الكبرى وآليات تحليل النصوص السردية لمعرفة البنية العامة التي تحكم النصوص السردية نظريا وتطبيقيا، ومن أهم التعريفات حسب سعيد يقطين: «أنه نقل الفعل القابل للحكي من الغياب إلى الحضور، وجعله قابلا للتداول، سواء كان هذا الفعل واقعيا أو تخييليا، وسواء تم التداول شفاها أو كتابة»[8].

أما جون ميشال آدم فيعرفه فاعتبره «فرعا من علم العلامات العام وفيه يجتهد الدارسون لتحليل أنماط التنظيم الداخلي في بعض أنواع النصوص، ومن هنا يرتبط هذا المبحث بتحليل الخطاب كما يرتبط بنحو النصوص»[9].

ومن خلال تعريف سعيد يقطين يتجلى البعد الإبداعي الأنطولوجي للسرد، إذ لا تقتصر مهمة السارد على الإخبار والعرض بل تتجاوز ذلك إلى وظيفة الإبداع والإنشاء للمضامين السردية من خلال إخراجها من الغياب إلى الحضور وإعطائها صفة التداول والتواصل، وعلى الرغم من عمق

فكرة سعيد يقطين في محاولته تعريف السرد إلا أنه تعريفا يتعلق بأهم وظيفة من وظائف السرد وليس ماهية السرد في حد ذاته.

أما تعريف جون ميشال آدم فقد بين فيه الانتماء العام لهذا العلم وموقعه في خريطة العلوم الإنسانية من جهة، وكذا إدراك منطق السرد الداخلي من خلال إدراك التنظيم الداخلي له وعلاقات هذا التنظيم وتفاعلاتها، وكذا أهمية البنية النحوية التركيبية في معرفة أبعاد البنية السردية ووظائفها التواصلية عامة.

3-في العلاقة بين والسرد والقصص

نحاول فيما يلي تناول شيئا مما يعد من صميم مقصودنا من عقد هذا العمل كله؛ ألا وهو العلاقة بين السرد والحجاج، وهي علاقة تنطوي على شيء غير قليل من الإشكال المنهجي الذي استوقف عنده الباحثون سواء من حقل السرد، أو من حقل الحجاج،

ومن ثم «فالسارد القرآني كلي، يتحرك بالمسرود في ضمن وعي مسبق لا شأن لمنطق الصدفة أو المفاجأة في برنامجه القصصي، وما يسرده، هو مقصوص يحيل على وقائع لها واقعيتها التاريخية، أولها موضوعاتها الواقعيته أو هي تجسد سردتها الفكرة المنسجمة مع روح العقيدة التوحيدية» (10).

لقد ارتبط السرد منذ القديم بالمتلقي عامة إذ شكل ركيزة متينة في التواصل مع القارئ لأنه وسيلة ممتعة للتعليم والتثقيف والتوجيه الاجتماعي والخلقي، وعلى الرغم من أنه ما يشبه الاتفاق على أن الأنواع السردية في الأدب العربي خاصة أو الأدب العالمي عامة كانت دائما في خدمة الحجاج وكانت إقناعية الطابع والغرض والمسعى، إلا أنه في العصر الحديث مع تطور السرد وفن الرواية ما يشبه أن يكون نزوعا نحو التخييل أكثر منه إلى الإقناع فقد «نحت أشكال السرد الحديث عامة والرواية بشكل خاص قد نحت في علاقتها بالحجاج-على الأقل نظريا-منحى مغاير لأجناس السرد القديم، وحرصت على تخليص السرد من شوائب البلاغة الإقناعية، فإن تاريخ السرد الروائي يثبت أنه لم يتجنب هذه الشوائب »[11].

فالسرد مهما أدعى الطابع التنظيري المتأثر بالبعد التخييلي تارة والجمالي تارة أخرى يظل دائما قرين الإقناع صراحة أو ضمنيا، بل إن الحجاج مكون أساسي لكل خطاب مهما بالغ في التخييل والبعد عن التفاعل مع المتلقي والقارئ، إذ لا يمكن للسرد وهو يرسم صورة لنماذج من الحياة البشر أو الأشياء أو الأفكار في تفاعلها مع بعضها البعض أن يتخلص من الإقناع لأن هذا الجنس الأدبي «يقوم على إعادة صياغة وتنظيم خطابات الحياة في حبكات سردية لا يمكنه أن يقوم دون حجاج لكنه في هذه الحال يكون حجاجا في خدمة السرد وليس العكس»[12]

4-في العلاقة بين السرد والحجاج في القصص القرآني

إذا نظرنا إلى السرد القرآني في علاقته بالحجاج وجدناهما يكادان يكونان متلازمان إذ حضور الحجاج ملازم لحضورًا السرد وحضور السرد يستبطن الحجاج سواء كان صراحا أو تضمينا، غير أن ما يجب التنبه له في هذا السياق هو أنّ الحِجاج حاضر في السرد القرآني بطريقة مغايرة لحضوره في أنواع الخطاب القرآني القائم على التنوّع الشديد في كلّ طرق التأثير والإقناع، سواء كان بحجج مباشرة وغير مباشرة، وسواء كان ذلك من خلال من الحوارات بين الشخصيات المتضادة، وتقف في مستوى أعلى عبر التساوق بين السرد والآيات السابقة والتالية المؤطّرة له، حيث يتجاوز الحجاج حد العبارة أو الروابط والأدوات إلى المشهد والخبر والمثل بوصفه ذلك كله وحدات نصية حجاجية؛ ولهذا تضمَّن القرآنُ أشكالًا وأنماطا متنوّعة من الحجاج وأساليب الإقناع والتأثير، كما توافر فيه من المعطيات الصوتية والصرفية ووالدلالية والتركيبية والأسلوبية والبلاغية ما جعله خطابًا متفردًا عن غيره من سائر الخطابات، وذا وظيفة حجاجية متميزة؛ لأنه تفوّق بالقدرة على التأثير في متلقيه[13] حتى بلغ حد الإعجاز

على أن ما يجدر ذكره هنا هو الفرق بين السرد القرآني والسرد في النصوص البشرية من هذه الحيثية المتعلقة بعلاقة السرد بالحجاج، فإذا كان الحجاج في النصوص الأدبية هو في خدمة الحجاج ضمنيا كثيرا وتصريحا أحيانا، فإن السرد في القصص القرآني هو في خدمة الحجاج دائما؛ بل في صميم الحجاج، وهذا ما يتجلى من مضمون القصة المسرودة في القرآن أولا وشكلها والجزء يذكر في الآية أو مجموعة الآيات أو السورة أو مجموعة السور فعلى الرغم أن يتعذر السرد دون حجاج مادام الحجاج جزء من البنية الخطابية التواصلية إلا أنه في الخطاب القرآني هو الأساس المتين الذي يسوق القرآن السرد لأجل الإقناع بأسسه فالقرآن لا يسرد قصة أو جزءا من قصة إلا ليقنع بها ويحاجج بها ويريد أن يغير بها وضعا.

ولعله من المفيد هنا أن نستثمر التمييز الجيد الذي أقامته روث أموسي بين مفهومين من المفاهيم الحجاجية في الخطاب وهما مفهوم «الغرض الحجاجي» ومفهوم «البعد الحجاجي»فالأول يكون في الخطابات الدينية والسياسية والمرافعات وغيرها من المرافعات التي تسعى إلى حمل المخاطب على القيام الاضطلاع بفعل من الأفعال، والقصص القرآني بلا شك أنه في الذروة من هذه الأبعاد إذ جاء لتغيير وضع على المستوى الاعتقادي والقيمي والسلوكي ...بلغ من الجاهلية منتهاها وجاء كذلك استجابة لسؤال أمة، أما البعد الحجاجي «فلا يكاد يخلو منه خطاب فهو جزء منصهر في بنيتها دون أن يكون لهذه الخطابات أي دعوى تروم إيقاع التصديق بها أو تتوخى إحداث التأثير العملي في المخاطب»[14].

ومن النتائج الهامة التي انتهى إليها منظرو الحجاج في سياقه التداولي الغربي المعاصر أنه لا يمكن تصنيف الخطابات إلى خطاب حجاجي وآخر غير حجاجي إذا لا جدوى من هذا التقابل بينهما، مادام الحجاج جزء لا يتجزء من بنية اللغة ذاتها كما يرى أوزفالد ديكرو وأنسكومبر أو مادامت الخطابات بنت سياقها وظروف إنتاجها كما يرى كل التداوليين ... وإنما الأهم والأقرب إلى الواجهة العلمية هو تصنيف الخطابات إلى حجاجية ظاهرة وأخرى حجاجية خفية.

فالقرآن في الذروة من الخطابات الحجاجية الظاهرة، إذ على غرار النصوص ذات التفاعل الكبير بين المتكلم والمخاطب جاء في الذروة من البلاغة والمواجهة والتفاعل الحجاجي بين القرآن وخصومه وهو من هذه الجهة قد وظف كل قصصه لهذا الغرض فلا يذكر قصة أو سرد لحدث قديم إلا ليواجه بها حالة واقعة وليقنع بها ومن ثم يغيير بها أفكارا وسلوكا فرديا وجماعيا.

لكن رغم هذا التقابل بين الظاهر والخفي في الحجاج فإن القرآن لما يتفاعل فيه الظاهر مع الخفي فالقصص القرآني على غرار سائر الخطاب القرآني تكتنز فيه الدلالة وتتكثف فيه المعاني يتضمن الكثير من الحجاج الظاهر والخفي جنبا إلى جنب، ولعل هذا إحدى تجليات قول القدماء من العلماء بأن القرآن حمال ذو وجوه.

5-البنية السردية في القصص القر آني و أبعادها الحجاجية

إذا كان ما سبق من هذا العمل يندرج ضمن التأصيل النظري والمنهجي للبنية السردية في القصص القرآني؛ فلا تتم أبعاده كاملة ولا رؤيته الكلية ولا اتساقه العام إلا بتناول جانبه الإجرائي التطبيقي، ومن هنا سوف نشرع في بيان أهم مظاهر البنية السردية على أن نحدد في هذا السياق على الأبعاد التداولية الحجاجية دون غيرها وهي كثيرة وقد تناولها باحثون من الناحية البنيوية والسيمائية وغيرها، ولذلك سنقتصر على الجوانب التداولية والحجاجية الإقناعية للكشف عن أهم المقومات الأدبية القصص القرآني في جانبه السردي

5-1-البنية الحدثية في القصص القرآني

لا شك أن أهم عنصر تقوم عليه القصة هو عنصر الحدث أو الأحداث، بغض النظر عن نوعه وطبيعته؛ فهو جوهر الفعل القصصي وإطاره الموضوعي والفني، إذ القصة لها علاقة قوية بالخبر....كما أن بناءها يقوم أصلا على الحدث«[15] ولما كان الخطاب القرآني بما يتضمنه من قصص؛ فهو نازل على المعهود البشري الفكري والنفسي والثقافي والاجتماعي فهو يتضمن أحداثا تعدقوام قصص القرآن وغايتها كما وظفت لإقناع المتلقي بها ودفعه إلى التخلي عن معتقداته القديمة

والعمل بما يعرضه عليه من أسس جديدة بما تتضمنه من عقيدة وقيم وأخلاق وسلوك، وفي هذا الصدد يوظف القرآن الكريم الحدث في القصص بوصفه يمثل علاقة الاستقطاب والدفع التي تتحرك عبرها الشخصيات ضمن شروط السياق الزماني والمكاني، ذلك أن الحدث سواء كان معقولا أو خارقا إنما يشرطه إطار ظرفي يوقت لوقوعه ويحدد أرضيته والفاعل التي هيأته أو صاحبته أو ترافقت معه، مباشرة معه أو بالتبعية على نحو فني يتجسد فيه العمل القصصي[16].

ولما كانت الأحداث بهذه القيمة المركزية في أي قصص كان فضلا عن القصص القرآني الذي يمثل ذروة البلاغة المعجزة والبيان الآسر فقد أرتأينا أن نعرض بالتمثيل والتحليل لنماذج من البنية الحدثية في بعض القصص المحورية وهي قصة هبوط آدم عليه السلام، وقصة نجاة نوح عليه السلام ومن معه في السفينة وهلاك الكافرين بدعوته وقد اقتصرنا على هاتين القصتين لأنهما من أكثر قصص القرآن تشويقا وبيانا لقدرة الله المطلقة وإجلاءً لانتصار الإيمان والحق والصلاح واندحار الكفر والباطل والفساد من جهة، ورغبة في الاختصار من جهة أخرى.

5-1-1-حدث الهبوط في قصة آدم عليه السلام

وردت قصة أدم عليه السلام في القرآن كثيرا، ولكنها في كل مرة توظف بأسلوب، وبمحاور للحديث، وببعد حجاجي مختلف يناسب سياق ورودها باعتبارها أول إنسان خلقه الله بيديه سبحانه تراب، وفي هذا تتجلى الأبعاد الحجاجية الدالّة على قدرة الله المطلقة كما تتجلى نعمة الله لا السابغة لهذا المخلوق الذي كان مبدأ خلقه من تراب وأخرج من صلبه هذا الكائن العجيب كميا ونوعيا، كما توظف في قضية طاعة الله ومعصيته وهي قضية سجود الملائكة لآدم وإباء إبليس لهذا الأمر الإلهي وطرده من رحمة الله وهي أهم ما توظف القصة لأجله لأنه يمثل العلاقة بين الآمر سبحانه وبين المأمور، وتوظف بغزارة لأن أكثر ما وقع من انحراف عن منهج الله ومن الكفر والمعصية منذ أن خلق الله هذا الكائن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو بسبب معصية أوامر الله سبحانه وأوامر رسله وأنبيائه ولذلك توظف في الغالب لهذا الغرض وتأتي الأغراض الأخرى تبعا له حسب السياق، كما توظف قصة آدم في غرض التنبيه إلى خطورة ومغبة النسيان والغفلة الذي طبع عليهما بنو آدم كما تتجلى في نسيان آدم في الأكل من الشجرة المنهي عنها والتي أدت به إلى الهبوط إلى الأرض وما يطاله من جراء هذا الهبوط من شقاء ومن صراع بين الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر، وتوظف في قضية استخلاف الإنسان في الأرض التي يختلف فيها هذا الكائن عن الملائكة، وإجمالا فإن قصة آدم عليه السلام توظف في كل مرة بما يلائم السياق الحجاجي المسوق له الخطاب القرآني في السورة كاملة أو في الآيات المتضمنة للقصة، لأن «حضور بعض الوظائف أو غيابها يؤثر في تغيير الصورة التي تأتي عليها القصة في كل مرة: فمرة هي عرض لقصة آدم وإبليس،

ومرة هي قصة العداوة بينهما، وثالثة هي قصة نسيان آدم، ورابعة هي قصة نسيان حقد الشيطان على آدم، وخامسة هي قصة التباين بين آدم وإبليس، وسادسة هي قصة الاستخلاف في الأرض»[17].

فهده القصة وُظفت بما يلائم البعد الحجاجي المسوق لأجله الخطاب القرآني سواء كان في السور المكية أو السور المدنية.

1-يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)[الأعراف: 27]

2-قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)[طه: 123-124]

3- قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)[البقرة: 38-39]

في هذه الآيات يتحدث القرآن الكريم عن حدث هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض نتيجة عصيانه أمر ربه بسبب إغواء إبليس الرجيم له ووسوسته للأكل من الشجرة، لكنها تشترك في وحدة الموضوع التي تتحدث عنه وهو حدث هبوط آدم وسببه وهو وسوسة إبليس الرجيم...وتختلف بعد ذلك في السياق الذي وظف فيه الموضوع في كل سورة وسياق نزولها؛ ففي **المثال الأول**: ربط بين التحذير من إغواء الشيطان لبني آدم وبين نتيجته عند أبي البشر آدم عليه السلام الذي كان سببا في هبوط آدم وطرده من الجنة ومن ثم هبوطه إلى الأرض فكان هذا الإغواء سببا في الهبوط وكان هذا الهبوط نتيجة لذاك الاغواء، وقد« بني على التحذير من متابعة الشيطان إلى إظهار كيده للناس من ابتداء خلقهم، إذ كاد لأصلهم»[18].غير أن اللافت للنظر في هذه الآية هو التعبير عن الهبوط بالإخراج وهو مرحلة سابقة على الهبوط فيه وقع حجاجي إذ الإخراج فيه معنى الطرد وهو أوقع من الهبوط الذي هو مترشح عن هذا الإخراج، فكان التعبير بالإخراج متناسب مع سعي الشيطان الدائم والمستمر لإخراج بني آدم من رحمة الله والكيد لهم، بالإضافة إلى أن التعبير القرآني قد أدمج في هذه المحاجة أمرا أخر لا يخلو هو الآخر من بعد تداولي حجاجي وهو نزع اللباس والتعرية وهي واقعة موقع الحال كما يقول المعربون والمفسرون وهذا الموقع يخول لها بعد حجاجي منظورا إليه في حال العرب ونظرتهم إلى العري وبعده النفسي ومدى فضاعة هذا الفعل عندهم؛ يقول ابن عاشور:«

والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال الكشاف سوآتهما لأن انكشاف السوءة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف الناس»[19]

وفي المثال الثاني: فإن القصة تؤدي الغرض نفسه مع الاختلاف في اللفظ والتعبير بما يقتضيه سياق حال المخاطب وسياق السورة فلما كان الامر في الآية السابقة متعلق بغواية الشيطان وما فعله ويفعله من كيد إلى يوم القيامة حاججه بذكر أصل هذه الغواية بين إبليس وآدم، أما في هذه الآية فان الأمر متعلق بعصيان آدم عامة ولكنه متعلق بالخصوص بـ خروج آدم وحواء من الجنة بعد دخوله فيها بسبب وسوسة من الشيطان، وما ترتب على ذلك من قضائه تعالى عند ذلك بتشريع الدين وسعادة من اتبع الهدى وشقاء من أعرض عن ذكر الله؛ فالسياق في طه متعلق باتباع الهوى أكثر وبتعلق الإنسان بطبعه الأرضي المادي فهي «تمثل حال الإنسان بحسب طبعه الأرضي المادي فقد خلقه الله سبحانه في أحسن تقويم وغمره في نعمه التي لا تحصى وأسكنه جنة الاعتدال ومنعه عن تعديه بالخروج إلى جانب الإسراف باتباع الهوى والتعلق بسراب الدنيا ونسيان جانب الرب تعالى بترك عهده إليه وعصيانه واتباع وسوسة الشيطان الذي يزين له الدنيا»[20]

ومن ثم فهي تحاجج المشركين ومن ورائهم كل عاص ومعرض عن ذكر الله ومنهجه بعدم الانصياع والانسياق وراء فتنة الشيطان وغروره بالمعصية لأن الأصل كان فيها شقاء أبوي البشر وبداية التكليف لبني آدم على الأرض.

أما آية المثال الثالث فهي أقرب إلى التكليف منها إلى الإرشاد والإخبار وذلك من خلال جمع ضمير المخاطبين مع أن المخاطب اثنين آدم وحواء وهذا راجع إلى سياق نزول الآية إذ هي من التنزيل المدني الذي هو سياق تشريع وتكليف وليس سياق عقيدة وأخلاق، ومن ثم يكون مرتبطا بسياق التكليف التشريعي، واللافت للنظر هو أن محورها يدور على الأمر بالهبوط أي تكليف آدم وذريته بالعبودية بعد خروجه عصيانه وأكله من الشجرة وتوبته وخروجه من الجنة وما ترتب على ذلك من تكليفه واشتراط الهدى التزامه بهدى الله وعبوديته، ولأن سياق سورة البقرة وهذه من أوائل آياتها سياق بداية التكليف التشريعي في العهد المدني فقد ربط بداية التكليف بأول تكليف سماوي للإنسان ممثلا في تكليف آدم عليه السلام، لذلك كانت هذه الآية المبنية على السرد التشريعي «كلمة جامعة لجميع التشريعات التفصيلية التي أنزلها الله تعالى في هذه الدنيا من طرق ملائكته وكتبه ورسله، يحكي عن أول تشريع شرع للإنسان في هذه الدنيا التي هي دنيا آدم وذريته«[21] غير أن هذا الأمر بالهبوط مشروط بالعهد الذي لأجله كان هذا الهبوط لذلك جاءت جملة الشرط مقيدة لهذا الهبوط وهي قوله عزّ مِن قائل: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» وعنها يقول ابن عاشور: «الآية هو في معنى العهد أخذه الله على آدم فلزم ذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم من الله وأن من أعرض عن هدى يأتي

من الله فقد استوجب العذاب فشمل جميع الشرائع الإلهية المخاطب بها طوائف الناس لوقوع «هدى» نكرة في سياق الشرط وهو من صيغ العموم، وأولى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم»[22].

وما نخلص إليه بعد تحليل هذه الأمثلة السردية الثلاثة المتعلقة بعنصر الحدث في قصة آدم هو أن حدث الهبوط قد وظف في القرآن الكريم مكيه ومدنيه حسب المقام التنزيلي محققا شرط البلاغة الأساسي وهو مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب فلما كان السياق المكي سياق حجاج حول العقيدة وإبطال الشرك والوثنية عند عرب مكة خاصة ومن ورائهم كل متلق جاء ذكر هبوط آدم منسجما مع معاني النكران والجحود والإباء الذي كان يجده الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين جحودا ونكرانا وإباءً يماثل إباء إبليس الذي كان سببا في حرمان آدم من الجنة وهو الحرمان الذي سيلقاه هؤلاء المعرضين عن دعوة القرآن إن استمروا في هذا الاعراض عن الإيمان، وفي المقابل وظف القرآن الكريم عنصر حدث الهبوط من قصة آدم في سياق بداية التشريع في التنزيل المدني الذي هو سياق تشريع من جهة وسياق رد ومحاجة على أهل الكتاب الذين لهم سابق معرفة بقصص الأنبياء ومنها قصة آدم لذلك جاء التركيز في هذه قصة آدم على جانبين مركزيين منها هما قضية الاستخلاف من جهة وربطه بهبوط وآدم وسبب ذلك من إغواء الشيطان له وتوبته وعلاقة ذلك بالعهد الذي قضاه الله سبحانه على عباده منذ أبيهم آدم وهو التزام بهدى الله وهو الإسلام وتعاليمه ومقتضياته، وبذلك كان توظيف عنصر الحدث في قصة آدم منسجما متناسقا مع سياق التنزيل، وبهذا ترتبط البلاغة القرآنية المعجزة بالسياق، وتبقى بعد ذلك مطلقة من قيد الزمان والمكان.

2-1-5-حدث الغرق في قصة نوح عليه السلام

نحاول في هذه الدراسة أن نجلي البنية السردية في نموذج آخر وهو قصة نوح عليه السلام غير أننا نقتصر من القصة على ما يتعلق بحادثة صنع السفينة وحمل من كل زوجين اثنين ثم حادثة الغرق التي تمثل عنصر التحول في قصة نوح عليه السلام، والملاحظ أنها تكررت كثيرا في ست سور بحسب النزول سور القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود ونوح بالإضافة إلى ذكره منفردا دون قصته في سياقات أخرى، وعلى الرغم من هذا التكرار إلا أنها تساق في كل مرة بأسلوب وحجاج مختلف مناسب لسياق السورة عامة وللموضوع الذي تساق لأجله القصة ويلاحظ المتأمل أنّها في كل سياقات ورودها تركز على ثلاثة عناصر أساسية تعتبر عماد في كل مواطن ذكرها بالإضافة إلى إضافة عنصر آخر في كل موضع يتناسب مع السياق، إذا فهناك محاور ثابتة لا تغيب عن القصة

وهناك عناصر جديدة يستدعي السياق ذكرها إذ إن «المتتاليات الوظيفية التي تمثل قصص نوح تشكل نجد وظائف ثابتة تتكرر في كل مرة وأخرى غير ثابتة« فمن العناصر الثابتة:

1-إرسال نوح إلى قومه ودعوته إلى عبادة الله وحده

2-تكذيب قومه له

3-نجاة المؤمنين وإهلاك الكافرين»[23]

وهي بمثابة اللبنة الأساسية والمقدار الثابت من القصة، ويكمن البعد الحجاجي من خلال سردها في أن الإيمان يؤدي إلى النجاة في الدنيا وافضلا عن الآخرة وأن الكفر والعصيان والتكذيب يؤدي إلى الهلاك والغرق في الدنيا والخسران في الآخرة وتعالق مضمون العنصر الأول وهو دعوة نوح قومه إلى عبادة الله وحده مع العنصر الثالث المتمثل في نجاة المؤمنين وإهلاك الكافرين تعالقا دائما سنني لا يكاد يتخلف فكل من آمن فقد نجا وكل من كفر فقد هلك، وهي صيغة حجاجية وتنتقل من الملزوم إلى اللازم؛ فالنجاة لازمها الإيمان والهلاك لازمه الكفر، ذلك أن نجاة المؤمنين من الكارثة التي تتواتر في هذه القصة وفي كل كثير من قصص القرآن تثبت تعالقا بين الإيمان والنجاة، ويمكن أن نصوغه مبدئيا على النحو التالي« من آمن فإنه يلقى النجاة من عقاب الله وبقدر ما يثبت القصص القرآني التعالق بين الإيمان والنجاة، فإنه يثبت بالتوازي مع ذلك تعالقا بين الكفر والهلاك» [24]

أما بقية العناصر والمتمثلة في التركيز على عنصر العذاب الذي وقع على قوم نوح جراء تكذيبهم وثانية طبيعة قوم نوح وموقفهم من الهدى، وثالثة هي قصة نتحدي نوح لقومه، وخامسة هي قصة الصبر الطويل لنوح على دعوة قومه وسادسة هي قصة شكواه وضراعته إلى ربه من استكبارهم وصلفهم وابائهم عن الحق، وسابعة هي أمره بصنع السفينة وثامنة قصة الطوفان وتاسعة قصة انتصار الله لنبيه وإهلاك المكذبين من قومه[25]، هذه العناصر تساق في كل مرة حسب السياق الذي جاءت السورة للحجاج حوله ولكنها جميعا تخدم المحاور الثلاثة الرئيسية السابقة، غير أننا سنركز ف هذا العنصر على حدث الغرق وصنع السفينة وإهلاك المكذبين من القصة فصنع السفينة ذكر في موضعين أوله في سورة المؤمنون وثانيهما في سورة هود

<u>الموضع الأول</u>: قال تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ(28)فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (28المؤمنون)

الموضع الثاني: ﴿واصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (هود37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (39هود)

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)

الموضع الرابع: قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (12الحاقة)

يأتي هذا العنصر من القصة في الموضعين كليهما بصيغة الأسلوب المنقول غير المباشر وملاحظة بنية الآيتين التعبيرية والاسلوبية يتبين أن التركيز في الآية الأولى على صنع الفلك بأعيننا ووحينا وتتشابه الآيتان في الصيغة وتختلفان في تكرار الوحي في الآية الأولى مرتين للتركيز على أن صنع مثل هذا الفلك ليس من معهود البشر إنما هو وحي من الله تعالى يقول بن عاشور:« ولذلك فنوح - عليه السلام - أول من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفا للبشر، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلا الله تعالى»[26]

ثم ينتقل السياق السردي إلى حدث فوران التنور في السياقين إلا ان سياق سورة هود تركز على حدث السخرية أكثر ونتيجة ذلك من بالتعجيل بالعقوبة في حين تكتفي سياق سورة المؤمنين بالمسار الطبيعي وهو صناعة الفلك فانتظار فوران التنور فركوب السفينة؛ فالطوفان دون ذكر السخرية وهنا يجدر التنبيه في الفرق بين السياقين في السورتين فمن المعلوم أن سورة المؤمنون أسبق في النزول من هود إذ تمثل اشتداد التكذيب على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ «نزلت السورة بجملتها بعد يونس. ونزلت يونس بعد الإسراء. وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها وهي من أخرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة. فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب- وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته، واستهزاء المشركين به»[27]، فذكر سخرية قوم نوح منه وهو يصنع سفينة النجاة هو في حد ذاته تطمين وتسرية للرسول صلى الله عليه وسلم بذكر صنع سفينة نوح والتفصيل في ذكر موقف قومه منه وهو يصنعها لتكون عبرة له على الصبر والتأسي وبذلك يكون ذكر هذه الزيادة ليس تكثيرا للسرد ولا تفصيلا لقصتها بقدر ماهي مناسبتها لسياق دعوة من نزل عليه هذا بلاغة هذا الكتاب المعجز الذي يطابق فيه الكلام لمقتضى حال المتلقي.

هذا، ويتفق البرنامج السردي في السورتين بالإضافة إلى الموضع الثالث والربع من سورتي القمر والحاقة على التوالي بعد ذلك حتى يصل إلى حدث الغرق والإنجاء فيوجز في سورة المؤمنون ويفصل في هود إذ يقول في سورة المؤمنون: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أما في هود فيفصل في هذا الحدث مضمنا محاورة نوح وابنه أثناء ركوب السفينة وذلك من قوله عز من قائل:﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود48-41)

ما أجمله القرآن في سورة المؤمنون من استواء نوح عليه السلام ومن معه على الفلك وأمره بالشكر على النجاة من القوم الظالمين ففصله في سورة هود لأن فيها السياق مناسب للتفصيل القصة اذ أدعى لتأسية وتطمين فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته فيما يلقاه من كفر وتعنت للمشركين فكان ذلك من خلال تصوير السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال وخلال هذا الموقف ينادي نوح ابنه الضال لكي يركب وينجو لكنه يأبى ويختار طريق الكفر والضلال والغرق والهلاك، ثم يضيف السياق في تصوير ما يجيش في قلب نوح من عاطفة الأبوة المتمثلة في إشفاقه على ابنه من الغرق إلا أن الخطاب الإلهي يحسم القضية حسما مبينا على معيار الإيمان والكفر وليس على منبه نوح عليه السلام أن وإن كانت تربطك به رابط بيولوجي إعلام ل«أن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة«[28]، لأنه- في حقيقة الأمر وحقيقة العقيدة التي جاء نوح ليدعو إليها- ليس من أهلك لأنه اختار طريق الضلال والإباء عن الحق وفي ثنايا ذلك يحذر الخطاب الإلهي نوحا أن يكون من الجاهلين مثبتا في ذات الوقت رجوع نوح إلى الحق واستعاذته بالله أن يكون من الجاهلين« بحقيقة الوشائج والروابط، أو حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أُول وتحقق، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق«.مختتما السياق السردي الحجاجي بتبريك الله لهبوط نوح بسلام وبركات على خلائف كثيرة من ذرية نوح من الصالح والطالح ومن المؤمن والكافر وبالتالي أمم مباركة وأمم مآلها الهلاك والبوار بعد تمتيعها قليلا يقول سيد قطب:كانت خاتمة المطاف: النجاة والبشرى له

ولمن يؤمن من ذريته والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم.. ذات البشرى وذات الوعيد، اللذان جاءا في مقدمة السورة. وقد ترجمهما في الواقع المشهود«[29] ؛ فهذه الآية ظاهرها الخبر ولكن قوتها الإنجازية الحجاجية هي البشارة والتبريك لنوح عليه لأنها «بشارة لنوح - عليه السلام - ومن معه بأن الله يجعل منهم أمما كثيرة يكونون محل كرامته وبركاته. وفيه إيذان بأن يجعل منهم أمما بخلاف ذلك»[30]

وما يهمنا في هذا التفصيل الذي تضمنه سياق سورة هود هو ما جاء مجملا في سورة المؤمنون إذا أردنا أن نربطه بالسياق التنزيلي للقرآن وبالتالي عن بعده الحجاجي هو أن تحذير مشركي مكة من سلوك سبيل قوم نوح لأنه قابلوا رسالة خاتم الأنبياء كما قابل قوم نوح نوحا فالغرض الحجاجي من هذه الحجة التاريخية السردية القصصية أخذ العبرة من هذه القصة وبالتالي سلوك سبيل المؤمنين الذي ركبوا في السفينة على الرغم من أنها حقيقة لكنها تعد رمز للنجاة وسلوك طريق الفلاح، ويبين ابن عاشور الغرض الحجاجي منها بالنسبة للذين خوطبوا بالقرآن حيث يقول: «والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا، والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنهم من ذرية نوح ولم يتبعوا سبيل جدهم، فأشعروا بأنهم من الأمم التي أنبأ الله نوحا بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم»[31] ؛ لذلك ذيلت الآية بقوله تعالى «فاصبر إن العاقبة للمتقين وهي جملة مضمونها «منتزع عن تفصيل القصة أي إذا علمت ما آل إليه أمر نوح (عليه السلام) وقومه من هلاك قومه ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين «[32] ونلاحظ في خاتمة هذا التحليل أن السياق في سورة القمر كان مجملا ومركز في ذات الوقت على قدرة الله في تسخير السفينة الموصوفة في عبارة وجيزة بأنها ذات ألواح ودسر أي أخشاب ومسامير ولاها لما كانت بوحي من الله وفي حفظ الله وعنايته «تجري بأعيننا« كانت دالة على قدرة الله في إنجاء رسله وعباده المؤمنين، أما في آية الحاقة فهي إشارة موجز إلى التذكير والامتنان على البشر عامة والمخاطبون بالقرآن خاصة على عظم منة الله على عباده إذ جعلهم من ذرين من نجا من طوفان نوح فكأنهم هم الناجون من الطوفان حقيقة وليس أجدادهم الضاربين في القدم، وهنا نلاحظ أن السياق يطول ويقصر ويجمل ويفصل بحسب سياق التنزيل عامة وسياق السورة خاصة فلما كانت سورة المؤمنين هي سورة قصص ولكنه قصص متنزل في بداية الدعوة الإسلامية جاء متوسطا، ولما كان سياق سورة هود للتفصيل المناسب لتطمين الرسول صلى الله عليه وسلم وتسليته على ما يلقاه من تكذيب قومه وأقربائه جاء السرد الحجاجي مناسبا لهذا التكذيب ولتلك المعاندة والإباء، أما في الحاقة والقمر فإن السياق سياق إشارة وتلويح إلى المكذبين للرسالات فأجمل وألمح إلى القدر الحجاجي الإقناعي

المناسب للتنزيل من القصة، ونشير في نهاية هذا التحليل أن أكثر لفظة تكررت في الحجاج السردي لقصة نوح هو لفظة التكذيب ولفظة الغرق (أغرقنا) ولفظة النجاة (أنجينا ونجينا)؛ فقد تكررت لفظة التكذيب في سبعة عشر موضعا من القرآن تشير كلها إلى قصة نوح وتدل على مدى الإباء والمعاندة للحق الذي واجهه نوح عليه السلام من قومه وصدودهم عن الحق، وأما لفظة أغرقنا فقد ذكرت في ثلاثة عشر موضعا منها تسعة مواضع بلفظ« أرقنا أو مغرقون« وفي أربعة مواضع تلميحا بألفاظ تدل على الغرق ك أخذهم الطوفان أو أهلكنا وفتحنا أبواب السماء بما ء منهمر وهي جميعا تدل على الكارثة الكبرى والغرق المهلك الذي كان نتيجة كفر قوم هود، أما لفظة النجاة فقد تكررت هي الأخرى في ستة مواضع في سور الأعراف ويونس والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات؛ وهي تأتي في ختام سرد قصة نوح تفصيلا أو إجمالا....لتدل أن الإيمان نتيجته النجاة وأن الكفر والتكذيب نتيجته الإغراق والهلاك أي انتصار الحق والإيمان وهزيمة الباطل والكفر في نهاية المطاف.

6- خاتمة

نصل في ختام هذه الدراسة إلى القول: أن أدبية السرد في القرآن هي من مظاهر إعجازه؛ سواء كان ذلك على مستوى البنية السردية أو كان في شكل السرد أو في مضمونه ويمكن أن نجمل أهم النتائج في النقاط التالية:

-إن دراسة القصص القرآني يجب أن تخضع لخصوصيات مصدره فيحتكم فيها إلى معاييره التي حددها النص – أي يدرس لا باعتباره قصصا وكفى ولكن باعتباره قرآنيا – خاصة منها قدسية المصدر وكماله ولسان العرب وغاية الهداية والإرشاد.

-إن السرد القصصي القرآني يحمل في خصوصيات أسلوبه تفرد الرؤية والغاية لأنه إلهي المصدر

- إن أدبية السرد القرآني يحمل وظيفته في ذاته ووفق أسسه الكبرى ومبادئه العقدية التي جاء السرد لتثبيتها وترسيخها والمحاججة ليدفع المتلقي إلى تأملها واستكناه مكامنها ومن ثم الإيمان بها لأنها ذات قيم كونية لاجدال فيها.

-السرد القرآني على غرار كل الخطاب القرآني قد أسس للنظر العقلي والحث على التفكر في مرامي العبر بعد أن وقع التحقق من صدق المعرفة الواردة فيه.

-إن دراسة القصص يجب أن تؤطر بسؤال البحث عن الأسرار والعبر والغايات الوجودية والقيمية والدعوية الكامنة فيها[2].

6. الإحالات والهوامش:

[1]-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط3 - 1414 هـ، ص211/3

[2]-عبد السلام هارون وآخرون المعجم الوسيط، إشراف شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر ،، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، ،2004 ص10،

[3]- عبد السلام المسدي، المصطلح النقدي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس ، د.ت، 1994، 69

[4]-سمير بن نابت، مفهوم الأدبية في النقد المغربي القديم،رسالة ماجستير في الادبي العربية تحت أشراف إسماعيل زردومي، جامعة باتنة ، 2011، 2012، ص13

[5]- رينيه ويليك وأوستن وارين، نظرية الأدب ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ط2، 1987،، ص19

[6]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر- بيروت , ط3 – 1414هـ ,ص211/3

[7]- نفس المرجع، ص211/3.

[8]- سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات، دار رؤية للنشروالتوزيع، ط1، 2006، ص72

J.M.Adam, le recit, parie editions p.u.f.1987.2ed.p4.-[9]

[10]-سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، قاربةتوصيفية لجمالية السرد الاعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص196.

[11]-محمد مشبال، البلاغة والرواية نحو مقاربة بلاغية موسعة للرواية العربية، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، ط1، 2022، ص119

[12] -نفس المرجع،120.

[13]-ينظر: محمود فرغلي، بلاغة الأداء السردي في قصص القرآن الكريم، مؤسسة كتاراللنشر قطر 2023.

[14]-محمد مشبال، البلاغة والرواية نحو مقاربة بلاغية موسعة للرواية العربية، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف ، ص120

[15]-هدارة محمد مصطفى، دراسات في الأدب العربي الحديث، ، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط2 ، 1984 ، ص261

[16]-عشراتي، سليمان، الخطاب القرآني، قاربةتوصيفية لجمالية السرد الاعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998ص79

[17]- خضر، محمد مشرف، بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، بإشراف عبد الرحيم زلط ومحمد عبد المطلب ومختار جبلي، بكلية الآداب جامعة طنطا، د.ت، ص23

[18] -ابن عاشور التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط،1 1420هـ/2000م، ص60/8

[19]- نفس المرجع، ص60/8

[20]- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج14، ص115، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1417هـ ص 115/14

[21]-نفس المرجع، ص77/1

[22]-ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص429/1

[23]- محمد مشرف ،خضر، بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه في قسم اللغة والأدب جامعة طنطا، دوت، ص27

[24]-فيصل الشطي، الحجاج في القصص القرآني، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2019، ص81

[25]- نفس المرجع، ص27

[26]-ابن عاشور التحرير والتنوير، ص255/11

[27]-سيد قطب، في ظلال القرآن، ص1840/4

[28]-ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص270/11

[29]-نفس المرجع ، ص1880/4

[30]-ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص274/11

-[31]-نفس المرجع، نفس الصفحة

[32]-الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1417ه ج14، ص125/10.